"الأفق الملّي في الفقه الأكبر وأبعاده الإنسانية"

د. عبد الرحمن طيبي[1]

معهد العلوم الاسلامية

جامعة الشهيد حمه لخضر -الوادي

abderta.benali@gmail.com

يجد المرء نفسه غارقا في عالم الأقزام معرفيا وسلوكيا، وهو يحاول الطواف على المنتج المعرفيّ لأحد عظماء الأمّة الإسلاميّة، الّذي كان بعطائه نقطة فارقة في التّراكم المعرفي المسهم في بناء الحضارة الإسلامية بسواعد قصدت الارتقاء بها للثبات على منزلة الشّهادة على النّاس التي رسّخها النبيّ الخاتم سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم تحقيقا لوعد الله عزّ وجلّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: 143]، ولعلّ أبرز المبرّرات الموضوعيّة بعد مبادرة القائمين على هذا المؤتمر فكرة وإنجازا لولوج هذا المجال أمران؛ الأوّل متعلّق بتنزيل مفهوم من مفاهيم صلة الرّحم الإيمانية[2] كما رسّخها الأستاذ بديع الزّمان سعيد النّورسي[3]، والثّاني نزول منزلة من منازل الحفاظ على سلسلة السّند المعرفي إلى سيّدنا رسول الله صلّى عليه وآله وسلّم عبر طريق الإمام أبي حنيفة النّعمان رضي الله عنه.

والوقوف على الأمرين المشار إليهما بإيفاء حقّهما يستدعي الوقوف على حيثيات واقع الإمام أبي حنيفة النّعمان رضي الله عنه (ت 150 هـ) في تأدية واجب الوقت، من خلال معرفة بمعالم واقعه زمانا ومكانا، وإبداعه في الإجابة على أسئلة راهنه المركزية، مستحضرين واقعنا نحن اليوم مستأنسين بسلفنا في ذلك ومتلمسين الاستفادة من الخبرة المعرفية لأعلام الأمّة عليهم الرّحمة والرّضوان، عبر بوّابة الدّرس العقدي أو الكلامي أو الفقه الأكبر على تسمية الإمام الأعظم، وهو عبارة عن مساءلة للمنتج المعرفي (الفقه الأكبر) ومحاكمته إلى المنطلق (الوحي الشّريف والواقع) والمقاصد والغايات (الوحي) من خلال النّتائج (على الواقع)، كلّها في إطار تمثّل الوحي الشّريف باعتباره ممثلا للرّسالة الخاتمة، المخاطِبة للنّاس أجمعين، أو بعبارة أدقّ المخاطبة للإنسان من حيث هو مرتقيا عن ملوّنات الحاضنة بيئية وثقافية ودينية، وهو ما يستدعي الوقوف على الرّباعية المنهجية الآتية باعتبارها محاور الجهد المعرفي للإمام أبي حنيفة قبل التّفصيل في الأفق المليّ والأبعاد الإنسانية.

أوّلا: محرّكات المنهجية الحنفية في إنتاج وتنزيل المعرفة

وهي بمثابة الدّوافع الأساسية الّتي يمكن من خلالها حصر إشكالية موضوع المداخلة، والتي تعتبر في جانب كبير منها الطريق الموصل إلى المشترك الغائي في فهم الوظيفة الوجودية للإنسان مقاربا فهم مراد مجتمع القدوة، في شقيه النّبوي والرّاشدي، وهي وإن تناولها منفردا من باب التّناول الوظيفيّ إلّا أنها لا تُرى إلا مجتمعة بوجه من الأوجه، وفق الآتي:

1. سريان روح التّوحيد منطلقا ومصبّا:

أصل التّوحيد وما يصحّ الاعتقاد عليه هو الإيمان بالله تعالى وهو جوهر الفقه الأكبر، بالإضافة إلى باقي أركان الإيمان الأخرى[4]، ومدار أفكاره ورؤاه انسجاما مع لبّ الإسلام، وهو المفهوم المركزي الّذي يعيش به المسلم «في كلّ مكان وفي كلّ فعل، وفي كلّ فكرة وفي كلّ زمان، فوعي المسلم ممتلئ بوجود الله تعالى على الدّوام، وهو شاغله الأسمى»[5]، ولاسيّما وأنّ الإمام يرى في مفهوم التّوحيد وإن لم يسمّه بذلك المحرّك الأساسيّ والدّافع الحيّ المستمر لحياة الإنسان لما يقول بالحرف الواحد لما سئل عن الفقه الأكبر فأجاب «أن لا تكفّر أحدا من أهل القبلة بذنب، ولا تنفي أحدا من الإيمان، وأن تأمر بالمعروف. وتنهى عن المنكر وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولا تتبرّأ من أحد من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولا توالي أحدا دون أحد، وأن تردّ أمر عثمان وعليّ إلى الله تعالى»[6]، وفي هذا النّص من الإمام تصريح بسريان مفهوم التّوحيد وتجليّاته على مستوى الفرد والجماعة، على مستوى الماضي (النبي والصحابة) والحاضر والمستقبل (المسلمين)، في إشارة واضحة منه إلى أثر التوحيد في وحدة المسلمين وتواصلهم وتوادهم وتراحمهم إيمانيا. بالإضافة إلى توجيه آخر إلى سريان التوحيد في جميع مناشط الحياة ويكفي في ذلك ربط الصورة التي رسمها كما يجب أن تكون بين المسلمين كتجلّ من تجليات الإيمان ودور الإنسان في هذا الوجود والموقف اللازم تجاه مدرسة الصّحابة بالتأكيد على محورية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر المفيد للسعي في الأرض لأداء أمانة الاستخلاف.

وهذا غير غريب عن الإمام في فهمه لأصول الدّين أو التّوحيد وتجليّاته، ولاسيّما مع الاعتبار أن مقصود الإمام هو الجمع بين الجانبين النظريّ والعمليّ، حينما أشار إلى أفضلية الفقه في الدّين على الفقه في الأحكام، والبون شاسع بين من يتفقه في كيفية عبادة الله وبين الجامع للعلم على كثرته، والأفضلية الشّرعية للأوّل بطبيعة الحال.[7]

ويزيد أبو حنيفة بيان الأفضلية من خلال تعلّم «الإيمان بالله، والشّرائع، والسّنن، والحدود، واختلاف الأمّة واتّفاقها»[8]، فرأس الأمر التّوحيد والباقي تجلّ له وانعكاس لمضامينه، وكأنّ الإمام يفسّر قول الله عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: 162-163]، وهو ما يقود إلى الحديث عن منهج تعامل الإمام مع الوحي الشّريف.

2. غلبة منطق الخدمة:

ما تمّت معالجته في العنصر السّابق يُظهر مركزية التّوحيد في نشاط الإمام أبي حنيفة، وهو ما يجعل من الوحي باعتباره الوسيط والآلية المعتبرة في الفهم والنّزول والإفهام، وقد عرف عصر الإمام هرجا ومرجا، وانشقاقا وتشتتا في أوساط المسلمين حاول كلّ طرف جرّ الوحي إلى جانبه، في الوقت الّذي أسعف فيه الوحي أطرافا ولم يسعف آخرين في الفهم والتّنزيل، ولعلّ مردّ الأمر إلى منطق التّعامل مع الوحي الشّريف، بين من يروم استخدامه وتوظيفه لنصرة آرائه وأفكاره بغضّ النّظر عن المسلّمات اللّغوية والشّرعية، وبين من جعل نفسه في خدمة الوحي الشّريف منطلقا منه ومحاكما إليه، وفي هذا يقول الإمام أبو حنيفة: «ولا الأمر إلّا ما جاء به القرآن ودعا إليه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وكان عليه أصحابه حتّى تفرّق عليه النّاس، وأمّا ما سوى ذلك فمبتدع ومحدث، فافهم كتابي إليك»[9]، وهو تلمّس منه ونزول عند قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: 17-18]، فخدمة الوحي طلب للهداية والنّجاة، والإنابة إلى الله يستدعي الاستماع للقول والخضوع للوحي للشريف والنّهل منه في التّأسيس للعلم والاستدلال له ونشره والعمل به[10]، لأنّ «العمل تبع للعلم، كما أنّ الأعضاء تبع للبصر، فالعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك الزّاد القليل الّذي لا بدّ منه في المفازة مع الهداية بها أنفع من الجهل مع الزاد الكثير»[11]، مستدلا بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: 9]، ولعلّ دوران الأمر حول الوحي الشّريف قرآنا وسنّة وجعلهما محور الرّحى في النّشاط الإنساني المتلبس بمسؤولية أداء أمانة الاستخلاف، دعوة من الإمام إلى اعتبارهما وفهمهما بمراد صاحبها، وكأنّ الإمام الشّاطبي[12] عليه رحمة الله عبّر عن لسان الإمام أبي حنيفة لما أوكل

الأمر إلى القرآن الكريم وما جاء به محمد صلّى الله عليه وآله وسلم، وهو يقول: «القرآن والسّنة لما كانا عربيّين لم يكن لينظر فيهما إلا عربيّ، كما أنّ من لم يعرف مقاصدهما لم يحلّ أن يتكلّم فيهما، إذ لا يصحّ له نظر حتى يكون عالما بهما»[13]، والعلم بهما مدعاة إلى فهمهما والعمل على مقتضى ما جاء فيهما ومقاصد صاحب الخطاب في إطار الرؤية التّوحيدية لهذا الدّين الحنيف.

3. النّزول منزلة من منازل التّبليغ:

إنّ كلّ مسلم بمثابة رسول عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، يسعى للإجابة عن أسئلة راهنه وواقعه بما يخدم المقصد الهدائي لهذا الدّين الحنيف، وقد قال الله في محكم تنزيله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾ [إبراهيم: 4] حيث أرسل نبيّنا عليه الصلاة والسّلام «بلسان قومه- وإن كان رسولاً إلى النّاس كافة- لأنّ قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافّة البشر. وعمره- صلى الله عليه وسلم- محدود. وقد أمر ليدعو قومه أولاً حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام. ومن ثم تكون مهداً يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض»[14]، واللّسان في هذا المقام اللّغة وما تحمله من معاني النّغمات والصور المعبّرة عن أحوال الإنسان المتكلّم بها[15]، بمعنى إشارة إلى واقعه وأسئلته المركزية، فلمّا كان السّؤال المركزي عند الأنبياء مع أقوامهم هو الدعوة إلى التّوحيد ومحاربة الشّرك، مع اندراج أسئلة أخرى ضمنه لا تقل أهمية عن السؤال المركزي وخادمة له، مما يجعل من العادات والتّقاليد والتّصرفات والقيم والأحكام الإنسانية بمثابة الصّور المتعدّدة للّسان، وهو ما يتطلب استدعاء النّزول منزلة من منازل التّبليغ من المسلم تأسيّا بصاحب السّنة ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ [الأحزاب: 21]، ونتلمّس هذا الأمر جليّا في موقف الإمام أبي حنيفة وهو يصف واقعه، أو بعبارة أخرى متحدّثا بلسان قومه: «وقد ابتلينا بمن يطعن علينا، ويستحلّ الدّماء منّا، فلا يسعنا أن لا نعلم من المخطئ منا والمصيب؟، وأن لا نذبّ عن أنفسنا وحرمنا. فمثل أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلفون السّلاح، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحلّ الدّماء منا، مع أنّ الرّجل إذا كفّ لسانه عن الكلام فيما اختلف فيه النّاس وقد سمع ذلك لم يطق أن يكفّ قلبه، لأنّه لا بدّ للقلب من يكره أحد الأمرين أو الأمرين جميعا... فإذا مال القلب إلى الجور أحبّ أهله. وإذا أحبّ القوم كان منهم، وإذا مال القلب إلى الحقّ وأهله كان لهم وليّا»[16]، إشارة إلى اضطراب عصره وتموجه بالأفكار

والآراء مما يستدعى منه النّزول منزلة من منازل التّبليغ تأدية للأمانة، واستجابة لواجب الوقت وهذه صورة من صور اللسان في عهد أبي حنيفة، وما هذا الجهد منه إلا محاولة للتفاعل مع أسئلة راهنه.

4. تفعيل الوظيفة الوجودية للإنسان:

وهي على وفق تعبير أستاذنا الدكتور عمار جيدل فقه حقيقة هذا الإنسان والعمل على تيسير سبل تأدية الوظيفة المطلوبة منه شرعا، من منطلق انسحاب التّوحيد على جميع أنواع الفعل الإنساني[17]، ويكفي في الإشارة إلى هذه الوظيفة تخصيص اجتهاداته في الفروع والأصول من أجل تسهيل سبل أداء الإنسان لوظيفته في الوجود، يقول أبو حنيفة: «أما بعد فأوصيك بتقوى الله وطاعته، وكفى بالله حسيبا وجازيا، ورزقنا الله حياة طيبة ومنقلبا كريما»[18]، فالحياة الطيبة هي أداء الإنسان لدوره في هذه الحياة بعمارة الأرض وعبادة الله عز وجل، والمنقلب الكريم هو تحصيل السّعادة في الآجل والفوز برضوان الله والدّخول في رحمته، إذ النّظر إلى هذه المسألة من خلال الزّاوية المرصودة يحقّق للإنسان مرتبة الشّهادة على النّاس، والخيرية المقترنة بالعمل الصالح والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والتي تتخلّل جميع شعاب الحياة دون استثناء، وذلك عبر بوابة العلم.

ثانيا: مداخل الأفق الملّي في الفقه الأكبر

لا يختلف المسلمون اليوم في توصيف حالة الضّعف والشّتات والفرقة التي يعيشونها، والتي جعلت من البعض في سبيل انتصاره للرأي والمذهب والفرقة يعلو بها على الدّين ذاته، بل ويجعل من الدّين في خدمة المذهب، قافزا على حقيقة البون بين الدّين كحائق إلهية وبين التّدين كممارسة عملية خاضعة لسياقات الزّمان والمكان، ولعلّ شيئا من هذه الأمراض كانت سمة لعصر الإمام أبي حنيفة[19]، بالرّغم من أنّ المفروض أن المسلمين يشكّلون وحدة بأثر التّوحيد، فكيف عالج الإمام أبو حنيفة هذا الإشكال من خلال الفقه الأكبر؟.

1. مدخل التّسمية والعنوان:

جدير بالباحث الوقوف عند دلالة مصطلح الفقه الأكبر، علّها تفتح لنا بعض المغاليق في هذا الجانب، ولا شك أنّ التسمية ابتداء هي في مقابل الفقه الأصغر أو فقه الفروع[20]، ولولا الفقه الأكبر الذّي يعتبر بمثابة الخلفية لغيره من الفقه ما استقام هذا الأخير، لارتباطه بمعرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده وباقي مسائل الإيمان[21]، ولا شك أنّ للإمام أبي حنيفة دواعي أخرى وراء استعمال هذه المصطلحات.

والفقه في اللغة لا يخرج عن معنى الفهم[22]، وفي الاصطلاح هو «العلم بمقتضى الكلام على تأمّله، ولهذا لا يقال إن الله يفقه لأنّه لا يوصف بالتأمّل، وتقول لمن تخاطبه تفقه ما أقوله أي تأمّله لتعرفه، ولا يستعمل إلا على معنى الكلام... وسمي علم الشّرع فقها لأنّه مبني عن معرفة كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[23]، ومن هذا الباب امتاز الفقه على العلم بمقتضى التّأمّل، وامتاز على المعرفة بمقتضى الوصل بين القول والفعل على اعتبار أنّ النّظر في الفقه تعامل مع الكلام مستحضر للسلوك[24]، وامتاز على الفهم بمقتضى تجاوز المعنى اللّفظي إلى الوقوف على مقاصد اللّفظ والكلام[25]، لذا يستوجب الفقه الدخول إلى دائرة التّأمّل، مع السعي في الوصل بين القول والفعل، في ظل اقتضائه الوقوف على الأسباب الخفيّة والكامنة[26]، بما يعني أنّه يحيل على خصيصتين إضافيتين هامّتين:[27]

أ.**خصيصة العمل**: حيث إنّه من المسلّم به من «أنّه ليس في أسامي العلوم الإسلامية اسم أدلّ على معنى العمل من لفظ الفقه»[28]، والمؤكد أنّ الإمام أبا حنيفة النّعمان تقصّد هذا الأمر في جو ارتفعت فيه أصوات أهل الإرجاء جنبا إلى جنب مع أصوات المكفرين بالكبائر، وقبل هذا وذاك لفتة من الإمام على ملازمة الأحوال للأقوال، فهي منه تربية بالمصطلح.

ب.**خصيصة الشّرف**: على اعتبار أنّ الفقه من أشرف العلوم الإسلامية، لأنّه «مبني على النّظر في كلام الله عزّ وجلّ وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما كان علم الفقه كذلك فإنّ العلوم الأخرى تشرف بقدر استمدادها منه وانبنائها عليه، فيكون أكثرها استمدادا منه وأقواها ابناء عليه هو أعلاها منزلة»[29]، وقد قالها بصريح العبارة موضحا أفضل الفقه بأنّه تعلّم «الإيمان بالله، والشّرائع، والسّنن، والحدود، واختلاف الأمّة واتّفاقها»[30]، فالفقه في عرف الإمام كلّ متكامل، أسّه الإيمان بالله وبها حاز الشّرف، وتعلّم الشّرائع والسنن والحدود من أجل العمل، والوقوف على اختلاف الأمة واتفاقها من باب مد جسور التّواصل بين أفرادها ومذاهبها طلبا للوحدة الناجمة عن التّوحيد.

2. مدخل الموضوعات:

وظف الإمام أبو حنيفة منهجا تقريريا في إثبات المباحث الإيمانية في الفقه الأكبر، جاعلا من سورة الإخلاص وروح الآيات التي بيّنت أركان الإيمان الستّة المبدأ والمنطلق في ذلك، متشعبا بالإشارة إلى جملة القضايا التي مثّلت الرّاهن آنذاك من قبيل الصفات الإلهية[31]، ومسألة عدم كون القرآن الكريم مخلوقا[32]، والصفات الخبرية[33]، والقضاء والقدر[34]، وصفات الأنبياء[35]، والمفاضلة بين الخلفاء الرّاشدين[36]، والموقف من الصّحابة الكرام عليهم الرّضوان[37]،

والموقف من مرتكب الكبيرة[38]، ومسألة المسح على الخفين وسنيّة صلاة التّراويح في رمضان[39]، ومفهوم الإيمان ومتعلقاته[40]، والشّفاعة[41]، وبعض القضايا السمعية المتعلّقة بالموت وما يصاحبه[42]، وشيء من أشراط السّاعة.[43]

والملاحظ من خلال الموضوعات المتطرق إليها في الفقه الأكبر، أنّها معبرة عن أحداث زمان الإمام، وفيها بعض المواقف الدّالة على الانتماء إلى المدرسة السنيّة في مقابل آخرين ويتجلى ذلك في التّرتيب بين الخلفاء الرّاشدين الأربعة، والموقف المعدّل لمجموع الصّحابة عليهم الرّضوان، بالإضافة إلى تطرّقه إلى مسألتين فقهيتين أقحمتا في مسائل التّوحيد وهما جواز المسح على الخفين، وسنّية صلاة التّراويح في رمضان، دون التّشغيب على المخالف أو الوقوع في عرضه، حتى أنّه لم يطلق الأحكام على المخالفين إلّا في موضع واحد لما وصف منكري معراج النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالابتداع والضّلال[44]، رغم وصفه المتأخر في طلب العلم بخصوص بعض مسائل التوحيد بأنه مشرف على الكفر[45] لكن هذا ليس بمقصود في إطار سياق الحديث عن التعامل مع المخالف، وفي هذا المنحى المقتصد منه في ألفاظ تجريح المخالفين رغم الإشارة إلى بعض مواقفهم في أكثر من موضع دلالة على عقليته الاستيعابية، وبناء درسه الإيماني وفق أفق مليّ متعال عن المذهب والرأي المخصوص، بما يبقي على جسور التّواصل ممدودة مع المخالف المذهبي، وهذا في حد ذاته إحدى تجليات خدمة الوحي التي تنتهي بصاحبها إلى خدمة الخلق بالنّزول منزلة من منازل التّبليغ.

3.مدخل المقاصد والغايات:

من خلال المسح السّريع لمحتوى رسالة الفقه الأكبر يتجلى البعد الهدائي في صياغتها ملتمسا من نور القرآن الكريم في ذلك، والتركيز على مسألة التّوحيد ما هي في آخر المطاف إلا تركيز على الأصل وما يعقبه تحصيل حاصل يقول أبو حنيفة كنتيجة للعمل الّذي قام به «ولا نكفّر مسلما بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة، إذا لم يستحلّها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمنا حقيقة، ويجوز أن يموت مؤنا فاسقا غير كافر»[46]، وقد ظهر من خلال رسالة الفقه الأكبر تساوقا مع أهدافها وغاياتها أنها حملت مضامين لخدمة البعد الهدائي تمثّلت فيما يأتي:

أ. **البنية التّقريرية للفقه الأكبر**: بمعنى أنّ الفقه الأكبر هو إحدى مراحل التأسيس للدرس العقدي أو الإيماني في إطار ظروف الزّمان والمكان التي ولد فيها، لذا جاء في صيغة تقريرية تستبطن الدّفاع عن الخيارات الإيمانية المتبناة من قبل الإمام بعيدا عن الوقوع في الخصوم والمخالفين، وتجلى ذلك من خلال الإكثار من الجمل الخبرية مع الإحالة إلى النصوص الشّرعية في بعض الحالات في مسألتي التّوحيد[47]

وكلام الله عز وجل[48]، واستعمال عبارات من قبيل ولا نذكر، ولا نكفّر، ولا نقول[49]، ولا يجوز[50]، التي تنتهي عند الإشارة إلى الشّبهات برفض تبنيها في سياق الأدب التّام، وهذا إحالة منه إلى الدّليل المتبنى.

ب. **الطبيعة الحوارية**: كما دلّت عبارات [ولا نذكر، ولا نكفّر، ولا نقول، ولا يجوز] إلى الشبهات السّائدة في عصر الإمام أبانت عن الطبيعة الحوارية للفقه الأكبر مع الآخر، موافقا ومخالفا، والحديث عن الحوار استحضار لمنزلة التبليغ ولمقصد الإقناع، في إطار الاعتراف بالمحاوَر واحترامه؛ اعتراف الوجود واعتراف التّواصل في إطار الاعتراف بالاجتماع الإنساني المتعدد، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: 13] وما ينجر عنها من سعي للحفاظ على القيم الإنسانية السّامية المحدّدة لأصول العيش المشترك، المغلّبة لمبدأ التّعاون، والتي يكون فيها المحاوِر الّذي هو الإمام نازلا منزلة من منازل الاشتغال والعمل كما تم الوقوف عند أبعاد استعمال مصطلح الفقه.

ت. **الفقه الأكبر صورة من صور تأدية الشّهادة**: ما دام الفقه الأكبر إحالة إلى التأمّل وجمع بين العلم والعمل، وطلب لأبعاد الأمور وغاياتها في مباحث الإيمان، وفي ظلّ السياق الفكري المضطرب الّذي وجد فيه الإمام، بما ميزه من كثرة المقالات وتعدد الفرق وتنازعها وتناحرها، يعتبر صورة من صور تأدية أمانة الشّهادة للحقّ بالحقّ، حيث انتقد تأخير طلب العلم في جملة المسائل الإيمانية[51]، وهو لم يؤخّر البيان عند الحاجة، يمكن اعتبار هذا السّلوك من الإمام بمثابة تأدية أمانة الشّهادة مصداقا لقول الله في محكم تنزيله: ﴿ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣ ﴾ [البقرة: 283.]، وانسجاما منه في عيش عصره والتّفاعل معه بما يحقق قيم التّواصل والاستيعاب، بعيدا عن النظرة المذهبية الضيّقة.

تبيّن للباحث من خلال هذه الدّراسة الموجزة جملة من الأبعاد والمعاني المستنطقة من عبارات الإمام ومن إشاراته، والتي أضفت بظلالها على تميز هذه الشّخصية الفذة من حيث الاستجابة للإكراهات الواقعية الممثلة في أسئلة الراهن، والبعد عن الخصومة من خلال العمل على جمع الكلمة واستيعاب المسلمين بعد معرفة مواطن اتفاقهم ومواطن اختلافهم في الأصول والفروع، تقليصا لفجوة الشّقاق والشّتات عبر منتج الفقه الكبر وما حواه من أساليب حوارية وإقناعية رامت تحقيق التّواصل بالاعتراف والاحترام وهي القيم الغائبة والمغيبة في مجتمعات

الفتنة والفرقة، غذتها روح التّقوى المعرفية التي ترفض الظلم المعرفي بل وتحاربه، كما حارب الظلم الماديّ والاستبدادي بكلّ انواعه حتى أنّه دفع حياته ثمنا لمواقفه ومبادئه، فرحمة الله عليه، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2. التنبكتي، أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989م.
3. جيدل عمار، **ماهية الإنسان من خلال رسائل النّور**، ط1، شركة نسل للنّشر والطّبع والتّوزيع، إستانبول، تركيا، 1422هـ-2001م.
4. الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، ط3، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ.
5. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غؤيب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، الدار الشّامية، دمشق، بيروت، سوريا، لبنان، 1412هـ.
6. الشّاطبيّ، أبو إسحاق إبراهيم، **الموافقات في أصول الشّريعة**، شرحه وخرّج أحاديثه: عبد الله دراز، وضع تراجمه: محمد عبد الله دراز، خرّج آياته وفهرس موضوعاته: عبد السّلام عبد الشّافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت
7. طه، عبد الرحمن، **فقه الفلسفة**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، المغرب، لبنان، 1995م.
8. العسكري، أبو هلال الحسن، **معجم الفروق اللغوية**، ط1، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، 1412هـ.
9. الفاروقي، إسماعيل راجي، **التّوحيد مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنّشر، القاهرة، مصر، 1435هـ-2014م.
10. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، بغداد، العراق، 1985م.
11. قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، ط17، دار الشروق، بيروت، القاهرة، لبنان، مصر، 1412هـ.
12. المسير، محمد سيد أحمد، **التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية**، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، مصر، 1419هـ-1998م.
13. النّعمان بن ثابت، أبو حنيفة، **رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتّي عالم أهل البصرة**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م.
14. النّعمان بن ثابت، أبو حنيفة، **العالم والمتعلّم**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م.
15. النّعمان بن ثابت، أبوحنيفة، **الفقه الأبسط**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م.
16. النّعمان بن ثابت، أبو حنيفة، **الفقه الأكبر**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م.
17. النورسي، بديع الزمان سعيد، **كليات رسائل النور: سيرة ذاتية**، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط 3، شركة سوزلر للنّشر، فرع القاهرة، مصر، 2000م.

18. النّورسي، بديع الزّمان سعيد، **كلّيات رسائل النّور: الكلمات**، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، ط3، شركة سوزلر للنّشر، فرع القاهرة، مصر، 2000م.

---

[1] أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي بجامعة الوادي-الجزائر

[2] أنظر: النّورسي، بديع الزّمان سعيد، **كلّيات رسائل النّور: الكلمات**، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، ط3، شركة سوزلر للنّشر، فرع القاهرة، مصر، 2000م. ص 440.

[3] **بديع الزمان سعيد النّورسي**: [1293-1379هـ=1876-1960م] ولد لعائلة كرديّة صالحة تمتهن الفلاحة شرق الأناضول في تركيا، عكف على طلب العلم مبكّرا، وذاع صيته لقوّة شكيمته وقدرته على الحفظ المتقن والمناظرة حتّى أُطلق عليه لقب بديع الزّمان اعترافا له بعلمه وذكائه، في خضمّ عصره الّذي امتاز بضعف وهوان المسلمين، وانتشار الضلالات والإلحاد، ممّا أثّر على وجهة الرّجل ومهامه التي انتصبت على مواجهة هذا الواقع. أنظر: النورسي، بديع الزمان سعيد، **كليات رسائل النور: سيرة ذاتية**، إعداد وترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط 3، شركة سوزلر للنّشر، فرع القاهرة، مصر، 2000م. ص 35 وما بعدها.

[4] أنظر : النّعمان بن ثابت، أبو حنيفة، **الفقه الأكبر**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م. ص 619.

[5] الفاروقي، إسماعيل راجي، **التّوحيد مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنّشر، القاهرة، مصر، 1435هـ-2014م. ص 41.

[6] النّعمان بن ثابت، أبوحنيفة، **الفقه الأبسط**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م. ص 599.

[7] أنظر : المرجع نفسه، ص 599.

[8] المرجع نفسه، ص 599.

[9] النّعمان بن ثابت، أبو حنيفة، **رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتّي عالم أهل البصرة**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م. ص 630.

[10] أنظر : الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، ط3، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ. ج: 26، ص 437 وما بعدها.

[11] النّعمان بن ثابت، أبو حنيفة، **العالم والمتعلّم**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، **مطبوع ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام من أعمال الإمام الكوثري**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1425هـ-2004م. ص 572.

[12] **إبراهيم بن موسى الشّاطبي (ت 790هـ)**: أصولي حافظ من أهالي غرناطة بالأندلس، أحد أبرز أعلام المالكية من مؤلّفاته التي وصلت إلينا الموافقات، والاعتصام، والإفادات والإنشادات.

أنظر: التنبكتي، أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989م. ج: 1، ص 48 وما بعدها.

[13] الشّاطبيّ، أبو إسحاق إبراهيم، **الموافقات في أصول الشّريعة**، شرحه وخرّج أحاديثه: عبد الله دراز، وضع تراجمه: محمد عبد الله دراز، خرّج آياته وفهرس موضوعاته: عبد السّلام عبد الشّافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت. ج: 3، ص 22.

[14] قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، ط17، دار الشروق، بيروت، القاهرة، لبنان، مصر، 1412هـ. ج: 4، ص 2087.

[15] أنظر : الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، الدار الشّامية، دمشق، بيروت، سوريا، لبنان، 1412هـ. ص 740.

[16] أبو حنيفة، **العالم والمتعلّم**، مرجع سابق، ص 572.

[17] أنظر : جيدل عمار، **ماهية الإنسان من خلال رسائل النّور**، ط1، شركة نسل للنّشر والطّبع والتّوزيع، إستانبول، تركيا، 1422هـ-2001م. ص 51.

[18] أبو حنيفة، **العالم والمتعلم**، مرجع سابق، ص 571.

[19] أنظر : المرجع نفسه، ص 572.

[20] أنظر : المسير، محمد سيد أحمد، **التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية**، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، مصر، 1419هـ-1998م. ص 27

[21] أنظر : أبو حنيفة، **الفقه الأبسط**، مرجع سابق، ص 599.

[22] أنظر : الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، بغداد، العراق، 1985م. ج: 3، ص 370.

[23] العسكري، أبو هلال الحسن، **معجم الفروق اللغوية**، ط1، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، 1412هـ. ص 412-413.

[24] أنظر : طه، عبد الرحمن، **فقه الفلسفة**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، المغرب، لبنان، 1995م. ص 27-28.

[25] أنظر : المرجع نفسه، ص 28-29.

[26] أنظر : المرجع نفسه، ص 29.

[27] الخصيصتان مستفادة من كتاب طه عبد الرحمن، أنظر المرجع نفسه، ص 29.

[28] أنظر: المرجع نفسه، ص 29.

[29] المرجع نفسه، ص 30.

[30] أبوحنيفة، **الفقه الأبسط**، مرجع سابق، ص 599.

[31] أنظر: أبو حنيفة، **الفقه الأكبر**، مرجع سابق، ص 619.

[32] أنظر: المرجع نفسه، ص 619.

[33] أنظر: المرجع نفسه، ص 620.

[34] أنظر: المرجع نفسه، ص 620.

[35] أنظر: المرجع نفسه، ص 621.

[36] أنظر: المرجع نفسه، ص 621.

[37] أنظر: المرجع نفسه، ص 621.

[38] أنظر: المرجع نفسه، ص 621.

[39] أنظر : المرجع نفسه، ص 621.

[40] أنظر: المرجع نفسه، ص 622.

[41] أنظر: المرجع نفسه، ص 623.

[42] أنظر : المرجع نفسه، ص 623.

[43] أنظر: المرجع نفسه، ص 624.

[44] أنظر: المرجع نفسه، ص 624.

[45] أنظر: المرجع نفسه، ص 624.

[46] أنظر : المرجع نفسه، ص 621.

[47] أنظر : المرجع نفسه، ص 619.

[48] أنظر : المرجع نفسه، ص 620.

[49] أنظر: المرجع نفسه، ص 621.

[50] أنظر : المرجع نفسه، ص 623.

[51] أنظر : المرجع نفسه، ص 624.